

# نحو (فقه استغراب إسلامي) معاصر مداخل نظرية

محمد البنعادي \*

لقد مرّ الاحتكاك الحضاري بين الإسلام والغرب بمراحل وجولات أبرزها:

**الجولة الأولى:** مع الفتوحات الإسلامية، ثمَّ الجولة الثانية مع الحروب الصليبية (ق11-ق13م)، ثمَّ الجولة الثالثة مع الفتوحات العثمانية التي كانت بداية للتوغل الإسلامي في أوروبا النصرانية، وأتت **الجولة الرابعة**، وهي استعمار العالم الإسلامي.

وقد رافق علاقة الاحتكاك هذه بُعدٌ حضاري وثقافي شديد الوضوح والاستقطاب يمكن حصره في المراحل التالية:

1- حصول (حركة الترجمة) في أواخر الدولة الأموية، ثمَّ تطورها في عهد الدولة العباسية.

وقد كان تأثير الغرب هنا تأثيراً اختيارياً، تم بمبادرة من المسلمين ورغبة منهم في الاستفادة من المنجز الغربي (الروماني والفارسي)، ولم يكن فعلاً ثقافياً مفروضاً من (الآخر).

2- تأثير الإسلام -بفعل التفوق الحضاري والعسكري- على مراكز الضعف الثقافي والحضاري في الغرب، كان من نتائجه حدوث مايسمى بالاستيقاظ الغربي، توج بعصر النهضة الأوروبية فيما بعد.

3- وتتميز فيها العلاقة مع الغرب بـ(التغريب) الذي بدأت جذوره منذ غزو نابليون لمصر عام 1798م، فهل سيكون (الاستغراب) المحطة المقبلة في التدافع الإسلامي الغربي في بُعدهِ الثقافي؟

إنها الدعوة التي ستحمل هذه الدراسة لواءها إن شاء الله، مستفيدة مما طرحه حسن حنفي في (مقدمة في علم الاستغراب)، إنها دعوة لتجلية هذا المفهوم في أبعاده الدينية والحضارية والثقافية، ودعوة لمحاولة تصحيح الوضع غير المتوازن بيننا وبين الآخر/الغرب، ودعوة لإنهاء الأشكال الجديدة للهيمنة الغربية، عبر قيام (فقه) جديد يهتم بدراسة الغرب أو (علم الاستغراب)، كما سماه الدكتور حسن حنفي، فقه تقوم عليه مراجع علمية تدرس الغرب وتفهم منطلقاته وأهدافه ونظم حياته الثقافية والفكرية، فقه يقوم على أساس علمي وعملي، فقه له منطلقات ومرجعية واضحة، وله وسائل وأدوات ناجعة، وله أهداف وطموحات نافعة لهذه الأمة في حالها ومآلها.

و(فقه الاستغراب) الذي نعنيه ونقصد إليه هنا، هو تلك المحاولة الجادة لدراسة الغرب ليس بهدف الترف الفكري والثقافي؛ بل لتحسين الهوية الإسلامية، وتأسيس علاقات مستقبلية سليمة وشاهدة مع (الآخر).

وحسبي في هذا المقام أن أثير مجموعة من المداخل النظرية لهذا الفقه، داعيا كلّ المفكرين والمثقفين إلى الإسهام في النهوض بهذه الدعوة -دعوة فقه الاستغراب- تنظيرا وتقييدا للوصول إلى مرحلة تأسيسية فعلية، عبر الدراسات والبحوث وإنشاء المراكز والمعاهد لذلك.

**المدخل النظري الأول:** في معركة المفاهيم والمصطلحات والخصوصية الحضارية في أهمية دراسة المفاهيم والمصطلحات والخصوصية الحضارية

تتبع أهمية دراسة إشكالية المفاهيم والمصطلحات في صيغها الحديثة واستخداماتها في الفكر العربي الإسلامي من كونها نتاج العلاقة مع

(الأخر)، حيث تلتقي الثقافات والعادات والتقاليد، وتتعانق الهويات والمرجعيات التي قد يذوب بعضها في بعض، وقد يسيطر بعضها على بعض فتتمحي الخصوصيات والجذور لبعض الثقافات والحضارات، لذلك وجب على كلّ مرجعية أو هوية أو حضارة أن تتميز -دون استعلاء- عن غيرها حتى تحافظ على أسسها ومبانيها ومعانيها وشعاراتها، وإلا كانت الثقافة الواحدة والمرجعية الواحدة هي المسيطرة و...و

فالمسألة المصطلحية -بمفهومها الحضاري- علاقة بماضي الذات الحضارية؛ إنها علاقة الفهم، فالتقويم، فالتوظيف، وضرورة ذلك بينة لذي عينين؛ لأسباب أهمها:

1- أن تراثنا هو ذاتنا؛ إذ المستقبل غيب، والحاضر -علميا- لا وجود له، فلم يبق إلا الماضي، الذي هو مستودع الذات وخزان الممتلكات، بما لها وما عليها من ملحوظات وملاحظات، فكيف نعرف إذن الذات إذا لم نفقه التراث؟

2- أن مفتاح التراث هو المصطلحات، وإنما توتى البيوت من أبوابها، وأبواب كلّ علم مصطلحاته؛ بل إنها خلاصة البحث فيه في كلّ عصر ومصر، ببدايتها يبدأ الوجود العلني للعلم، وفي تطورها يتلخص تطور العلم.

3- أن مفتاح المفتاح هو الدراسة المصطلحية للمصطلحات؛ ذلك بأنها تعرف غير المعرف -وهو الأغلب- وتدقق تعريف ما عرف فلم يعرف -وهو الأقل- وتصحح أخطاء أصحاب النظرات الملونة.

كما أن المسألة المصطلحية لها علاقة بحاضر الذات:

وهي علاقة الاستيعاب، فالتواصل، فالتوحد، ودون ذلك -كما يقال- خَرَطُ القَتَادِ؛ إذ الانصراف شبه تام عن الاستيعاب لمصطلحات التراث، والانصراف شبه تام إلى استقبال مصطلحات غير الذات... هذا فضلا

عن أن العجز شبه تام، عن التواصل الدقيق بين أجزاء الذات، والعجز شبه تام عن إنتاج الخطاب الموحد للذات، والعجز شبه تام أيضا لاستيعاب ما يجري في الذات أو خارج الذات... وهي كما تقدم أيضا استشراف آفاق مصطلح المستقبل، وتتلخص في ثلاث:

أ - ضرورة الإبداع المصطلحي لبناء ذات المستقبل أو مستقبل الذات.

ب- ضرورة الاستقلال المصطلحي؛ لحوار الذات لغير الذات.

ج - ضرورة التفوق المصطلحي كيفاً وكماً؛ لشهود الذات، ولا تفوق للمصطلح بغير تفوق أهله(2).

وعليه، فإن المسألة المصطلحية مسألة حضارية يمكن أن تكون من قضايا فقه الاستغراب الملحة، سأعرض عنها، وحسبي إثارة السؤال في هذا المقام، عسى أن يقيض الله لهذا الموضوع من يحسن ويجيد البحث فيه.

**المدخل النظري الثاني: (الآخر) في القرآن الكريم في مفهوم (الآخر):**

(الآخر) بمعنى (الغير) وأصله أَفْعَلٌ من آخر أي تأخر، فمعناه أشد تأخراً، ثُمَّ صار بمعنى المغاير(3)، وآخر: تَأْنِيثُهُ أُخْرَى وجمعها أُخْرٌ غير مصروف قال تعالى: ﴿فعدة من أيامٍ أُخر﴾(4)، ونقول: فلان أثبت مع الله إليها آخر(5).

و(الغير) الاسم من التغيير، وذهب اللحياني إلى أن الغير ليس بمصدر؛ إذ ليس له فعل ثلاثي غير مزيد، وَغَيْرٌ عَلَيْهِ الأَمْرُ: حوله، وتغايرت الأشياء(6).

والآخر مفهوم كلي يتسع مدلوله لغويا لكل ما هو غير الذات، وغير الذات يشمل كل من له وجود باستثناء الذات الإلهية، وعليه فإن الآخر بالنسبة للإسلام هو كل الكون بِمَنْ فِيهِ، بدءاً من الإنسان الذي يخالف

الإسلام، ومرورا بسائر المخلوقات كالحیوان وسائر الأحياء والجمادات؛ بيد أن معنى الاستعمال الشائع للفظ (الآخر) يميل إلى حصره في الآخر البشري لشخص معين، ويتيح مثل هذا المعنى الاستعمالي الشائع تحديد المعنى بعبارة أدق، فيكون الآخر هو الآخر من مختلف فئات البشر، وربما اختزله البعض أكثر في الآخر أي غير المسلم. إذن فـ(الآخر) الذي يهمننا في هذا المجال هو(الغير) باعتباره طرفا مفارقا للذات الاجتماعية والحضارية، متميزا عن الأنا، له كيانه المستقل عنها في جميع أبنيته: الهيكلية والنفسية والشعورية والفكرية(7).

ويؤكد الإسلام على حقيقة التنوع البشري ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل﴾ والثقافي ﴿واختلاف ألسنتكم﴾ والديني ﴿ولا يزالون مختلفين﴾، ويبني الإسلام على هذا التنوع الواقعي ويدعمه شرعا بسن الحق في التنوع والاختلاف كمبدأ عام دينيا ﴿لكم دينكم ولي دين﴾ و﴿لا إكراه في الدين﴾ وقانونيا ﴿لكل جعلنا منكم شرعة﴾ وسياسيا ﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم﴾ وثقافيا ﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه﴾.

### (الآخر) في فضاء الحرية الإسلامية: نحو فهم متطور:

لئن كانت الحرية في الحضارات الغربية تبدأ من التحرر اليوم لتنتهي إلى ألوان من العبودية والأغلال، فإن الحرية الرحبية في الإسلام على العكس، فإنها تبدأ من العبودية المخلصة لله تعالى؛ لتنتهي إلى التحرر من كل أشكال العبودية المهينة(8).

إن هذه الحرية الرحبية من أهم القيم الإسلامية المعيارية في تحديد العلاقة مع (الآخر)، وتحديد دوائرها المختلفة والتي سنتعرض لها لاحقا، والمتأمل في فضاء الحرية -الذي أطلقه القرآن فيما يخص الرأي والتعبير للآخر- يلاحظ المستويات التالية:

1- حرية النظر والتفكير للوصول إلى تحديد معتقد ما وتبنيه.

2- حرية التعبير عن المعتقد بالقول أو بالفعل.

3- حرية الدفاع عن المعتقد والدعوة إليه وإقناع الآخرين به.

4- حرية نقد معتقدات الآخرين المعارضة للمعتقد(9).

وتتظافر نصوص قرآنية كثيرة على إبراز هذا المعنى مثل قوله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ (10)، ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى عَبْدًا إِذَا صَلَّى﴾ (11)، ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ (12).

إذن، ففي إطار هذه الحرية نزع الإسلام إلى تربية أتباعه على سلوك مقنن مع (الأخر)، أي كان موقعه وإلى أي قبيلة ينتمي، فوضع مبادئ تحكم هذه العلاقة وتؤسس لها، وهي أن الناس سواسية كأسنان المشط، ووضع قواعد تلتئم في ظلها الجماعة البشرية، ورسخ دعوة كونية أساسها التنوع في إطار الوحدة من خلال قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾، ويبدو من ذلك أن القرآن بنى فلسفته على قاعدة نقيضة لفلسفات النفي والتفرد وعبادة الذات.

من هنا تتأتى أهمية الحاجة إلى ما سمّاه أحدهم بـ(الحلف التنويري) (13) الذي يجمع كلّ الغيورين على هذا الدين وعلى مستقبل الأمة، والذي من شأنه أن يقود إلى فهم جديد أساسه التسامح والاعتراف بالآخر، والأهم القطيعة مع اتّجاهات الغلو التي سادت بعض الخطابات الإسلامية، وما يلفت النظر، ويبشر بالخير -في العقد الأخير من القرن المنصرم وبداية الألفية الميلادية الجديدة- بروز عدة اتّجاهات:

**الأول:** ويقوم بمراجعة جذرية لطروحات الغلو داخل الخطاب الإسلامي، مراجعة مست الكثير من المفاهيم والمقولات، كمفهوم الحاكمية والجاهلية، ومقولة إفلاس الحضارة الغربية وتجهيل الغرب.

**الثاني:** ويدعو إلى تجديد ديني ينهض على قاعدة من التسامح والتنوير والتواصل مع الآخر، وينهض على قاعدة من المصالحة بين الدين والدولة(14).

### موضوعة (الآخر) في القرآن الكريم:

حمل الإسلام نظرة دينية جديدة للعالم والإنسان؛ إذ تضمن التصور القرآني إدراكا لافتا للاختلاف بين الكائنات والناس واللغات والأديان. إذ خلق الله البشر -وفق الرؤية الإسلامية- مختلفين:

جنسياً من ذكر وأنثى: ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الذَّرَّ وَالْأُنثَى﴾ (15) ولغويًا: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالاختلافُ السِّنِّتِكُمْ وَالْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ﴾ (16) ودينيًا: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (17).

وأنشأ الاجتماع البشري في وحدات مختلفة (شعوباً وقبائل) على قاعدة علاقات التعارف: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾، والتدافع ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (18)، إن معنى (الدفع) أو التدافع، -حسب المصطلح القرآني- يشير إلى التفاعل والتواؤم مع واقعة التنوع والاختلاف، اللذين هما في المنطق القرآني قانون الخلق الإلهي ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (19).

فالرؤية القرآنية للآخر تتحدّد على أساس وحدة الانتماء الإنساني والعقائدي من جهة، وعلى قاعدة التمايز والاختلاف الديني والعنقي والألسني والاجتماعي من جهة ثانية، وهي إذ تؤكد على هذا المبدأ، فإنها تدعو إلى التواصل والتعارف، بكلّ ما يفترضه ذلك من نبذ التعصب، وإرادة إلغاء الغير.

وقد خصَّ القرآن المسيحية بتعاطف خاص ﴿وَلْتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بَأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيَّيْنَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾(20)، ومنح المسيح -- عليه السلام -- ميزة غاية في الأهمية؛ إذ جعله مؤيداً بالروح القدس ﴿وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾(21).

إن الاجتماع السياسي الإسلامي لم يؤدِ إلى صهر الاختلافات والتنوعات داخله؛ بل أفسح لهذا التنوع مساحة للتعبير عن نفسه، لهذا نرى أن قيود الاجتماع السياسي هذه على أهل الذمة، لم تمنع النصرانية في العصر العباسي من أن يكون لها من القوة والنشاط ما يمكنها من فتح مراكز تبشير لها في الهند والصين، انطلاقاً من دار الإسلام(22).

قلنا في فقرة سابقة، إن موضوعه (الأخر) أو مسألة (الغيرية) تعدّ من أهم المباحث اليوم في العلوم الإنسانية لاتصالها بميادين علمية عديدة، ولتأثيرها في مسائل مهمة لحياة الجماعات البشرية من قبيل الهوية والحضارة والتبادل الثقافي، خاصة مع المقاومة العنيفة التي بدأت تواجهها قيم الغرب، ممّا أدى إلى تخلخل البنى الثقافية والسياسية والقيمية للعلاقات الدولية(23)، وأؤكد أن (الأخر) الذي يهمننا في هذا المجال هو ذلك (الغير) باعتباره طرفاً مفارقاً للذات، وليس معانقاً لها، متميزاً عن (الأنا)، له كيانه المستقل عنها في جميع مكوناته.

إن المتأمل في النص القرآني يلاحظ -دون عناء- تقسيم الاجتماع البشري في ظل المعيارية الإسلامية إلى مؤمنين وكفار؛ لكن النظرة العميقة تدخلنا إلى فضاء أرحب وأوسع تتقاطع فيه الخطوط وتكثر فيه دوائر (الآخرين)، حيث قد يعتبر القرآن آخر أيضاً طرفاً داخلياً في بعض الحالات، برغم انتماء هذا الطرف إلى دائرة (الأنا) الجغرافية والعقدية الإسلامية، وبلغة أخرى عرض لنا القرآن كيف تنتج الذات آخرها لتتمكن من تعريف حدود هويتها(24)، وعندما يتحدث القرآن الكريم عن (الأخر)، يجعل حديثه ممركزاً حول فئة الإيمان والكفر



عموماً. وإذا نظرنا إلى المفهومين من منظور سياسي نكون أمام دار الإسلام في مقابل دار الحرب، ورغم المبدئية الفكرية في هذا التقسيم، فإن القرآن يشير إلى تعقد الواقع الاجتماعي، وبالتالي إلى تعدد خطوط الحركة بين هذين القطبين، وكثرة الدوائر التي تشق كل واحدة منها، ومن خلال دراسة هذا المصطلح وتجاوز مستوياته المسطحة، نستطيع أن نتبين أن هناك آخرين متعددين -وليس (آخر) واحداً-، مختلفي المواقع بحسب قربهم أو بعدهم من الجماعة المسلمة وليس الأمر مقصوراً على (آخر) واحداً (25).

## دوائر (الآخر) في القرآن الكريم:

### (الآخر) الداخلي:

في هذا الإطار تكون المرجعية للإيمان والمسؤوليات السياسية والاجتماعية المترتبة عنه، ورغم ذلك فقد يحصل ما يفرق بين المؤمنين المؤلفين للجماعة العقائدية المسلمة، حينما يخل بعضهم بشروط التعامل المنصوص عليه في عقد الإيمان، فتصبح فئات من بينهم (آخر)، والذي يعطي هذا الآخر شكله ويرسم للذات حدود التعامل معه هنا هو الله (الآخر) -بكسر الخاء- أي كلما التزم المرء داخل دائرة الإيمان بالأوامر والنواهي، وبالتالي كلما تماهى المؤمن في ذات (الآخر) تقلص الخطر من أن يصبح (آخر) يتعامل معه بشروط النفي (26).

وبرجوعنا إلى سورة التوبة نلمس هذه المفاهيم؛ فهي تتضمن أحكاماً نهائية في العلاقات بين الأمة المسلمة وسائر الأمم، وتصنيف المجتمع المسلم ذاته وتحديد قيمه ومقاماته وأوضاع كل طائفة وكل طبقة من طبقاته يقول - عز وجل - : ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ. وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ،

وَأَخْرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ. أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ. وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ وَأَخْرُونَ مُرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ(27).

ويمكن تصنيف هذه الآيات إلى خمسة مقاطع:

- **المقطع الأول:** وفيه بيان أحكام العلاقات النهائية بين المسلمين والمشركين.

- **والمقطع الثاني:** وفيه بيان أحكام العلاقات النهائية بين المسلمين وأهل الكتاب عامة.

- **والمقطع الثالث:** وفيه معاتبة المتناقلين عن القتال إبان غزوة تبوك.

- **والمقطع الرابع:** وفيه فضح للمنافقين وأفاعيلهم داخل المجتمع المسلم، ووصف أحوالهم النفسية والعملية ومواقفهم من غزوة تبوك، وكشف حقيقة نواياهم وحيلهم ومعاديرهم في التخلف عن الجهاد، وبث الضعف والفتنة وإيذاء الرسول - صلى الله عليه وسلم - وتحديد العلاقة معهم والمفاضلة بين الفريقين.

- **والمقطع الخامس:** وفيه تصنيف للمجتمع برمته.

إن هذا (الأخر) الداخلي الذي ينتمي إلى الفصيل العقدي نفسه لا يتحدد بعرقه ولونه ولا بلغته وواقعه الطبقي ومكان وجوده الجغرافي، كما رأيت؛ بل يتحدد بمدى التزامه وتماهيه مع (الأخر) -بكسر الخاء- - عز وجل - من خلال تجاوبه مع متطلبات العضوية الحقة في المجتمع الإسلامي(28).

## (الآخر) الخارجي:

### 1- ماهية (الآخر) الخارجي:

هو النقيض العقدي والتكويني والسياسي وربما الجغرافي أيضا، يقول -جل جلاله - : ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ (29)، إنه صراع تناقضي واضح تمثله جماعتان ذواتا برنامجين متناقضين، وصلت حدة التناقض بينهما إلى إعلان الحرب الشاملة: جماعة الرسول - صلى الله عليه وسلم - وهي (الذات) التي يعبر القرآن الكريم عن برنامجها العقدي والسياسي والاجتماعي والفكري، وجماعة قريش (الآخر المستقل بذاته خارج دائرة السيادة الإسلامية)، ذات المشروع الكفري النقيض والمناهض للمشروع الوليد الموحد -بكسر الحاء- (30).

### 2- مختصر مقارنة واقعية في منهج استيعاب (الآخر الخارجي):

#### (الغرب) جزء من أمة الدعوة:

للغرب من الخصوصية ما ليس لغيره، فجزوره ترجع في الجملة إلى أهل كتاب، ولأهل الكتاب من الخصوصية ما ليس لغيرهم في الإسلام، فقد أباحت الشريعة طعامهم، وأحلت نكاح نسائهم، بما لم تُجزه مع فئة أخرى من غير المسلمين، وعقدت لأهل الكتاب الأمان في مجتمعاتها، وأعطتهم على ذلك ذمة الله ورسوله، وللنصارى منهم اعتبار أخص ورد ذكره في كتاب الله - عزَّ وجلَّ - عندما قال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (31).

فالأمر -إذن- ليس خصوصية عدا للغرب، ولا خصوصية موالاة للشرق، فإن كلا من الغرب والشرق يتضمن البرَّ والفاجر، وينتظم في

سلكه المسلم والكافر، ولا يعقد ولاء ولا براء في الإسلام على غرب ولا شرق، وإنما محض الإسلام ولاء المسلم للحق الذي نزل من عند الله، وأمره أن يكون قواما، فالمسلم لا ينصر أحدا على باطل، مسلما كان أو غير مسلم، فزدا كان أو كيانا سياسيا، غربيا كان أو شرقيا؛ فالقرآن لا يسوي ولا يعمم الأحكام والأوصاف على فصائل أهل الكتاب وتياراتهم وفرقهم، ثم يقعد لقاعدة (عدم التعميم) هذه فيقول: (ليسوا سواء) (32).

كان هذا هو موقف الإسلام - غير المسبوق وغير الملحوق - في الاعتراف بكلّ (الآخرين) الذين يتركونه ويجحدونه؛ بل قد تجاوز الاعتراف بهم والقبول لهم، ووصل إلى حد جعلهم جزءا من (الذات) ذات الدين الإلهي الواحد وذات الأمة الواحدة، بل جعل تمكينهم من حرية إقامة جحودهم بالإسلام شرطا من شروط اكتمال عقيدة الإسلام وإسلامية دولة الإسلام (33).

### ماهية (الآخر) المزدوج ومنهج التجربة الإسلامية في التعاطي معه:

قد يكون (الآخر) داخليا وخارجيا في الوقت نفسه، داخليا باعتبار الحيز الجغرافي الذي يميزه عن الأنا، ونقصد بذلك الجماعات التي لا تنتمي بالضرورة إلى جماعة المؤمنين؛ ولكنها تعيش معها تحت سيادة الحكم السياسي الإسلامي.

ومن روائع القرآن في تقنين العلاقة مع (الآخر) اعترافه لهذا (الآخر) بالحقوق المدنية نفسها التي يقرها لأتباعه، يقول - عز وجل - (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةٌ بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ) (34)، هذا الاعتراف المبدئي بـ(الآخر الداخلي) جغرافيا والمغاير ثقافيا ودينيا يعدّ موقفا متقدما لمصلحة الجماعة الإنسانية، ويندرج ضمن فلسفة متعارضة مع النفي المطلق القائم عليها المجتمع القبلي (35).

## معيارية السنة في تحديد (الآخر):

لقد أعطى الرسول - صلى الله عليه وسلم - مثلا عاليا في معاملة أهل الكتاب أبرز صور (الآخر)، فقد روي عنه - صلى الله عليه وسلم - أنه كان يحضر ولأئمتهم، ويشيع جنازهم، ويعود مرضاهم، ويزورهم ويكرمهم، حتى روي عنه أنه لما زاره وفد نجران فرش لهم عباءته، ودعاهم إلى الجلوس عليها، وروي أنه كان يقترض من أهل الكتاب نقودا ويرهنهم أمتعتهم، حتى أنه توفي ودرعه مرهونة عند بعض يهود المدينة في دين عليه (36)، ويتبين من تتبع السيرة العطرة للرسول - صلى الله عليه وسلم - أنه اهتم مبكرا بتقنين العلاقة مع (الآخر)، ووضعها ضمن أولوياته الملحة التي لا تتحمل الإبطاء، لذلك نجده يعجل بإنجاز ثلاث قضايا مركزية فور وصوله إلى المدينة:

- المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار.

- بناء المسجد؛ ليكون للدعوة والصلاة واستقبال الوفود.

- عقد معاهدة حسن جوار وتحالف دفاعي بين المسلمين وبين اليهود والمشركين، وبذلك تقررت حرية العبادة والدعوة (37).

## موقع (الآخر) في الصحيفة دستور المدينة:

الصحيفة صيغة مبكرة ومتقدمة لإبرام المعاهدات والمواثيق الاجتماعية والدولية مع الآخرين، ويأتي تعبير (أهل الصحيفة) ليحدد ماهية المنخرطين في هذه الصيغة، وهم كلٌّ مَنْ قَبْلَ بنود الصحيفة سواء أكان من أهل المدينة أم من غيرها من الأقوام والفئات الاجتماعية والفكرية والسياسية والعقائدية، وسواء أكانوا من اليهود أم من العرب غير المسلمين، وهذا يكشف أن الصحيفة قد وضعت تنظيما لعلاقات الدولة والأمة فيما جاوز المدينة، وليست خاصة بأهل المدينة وحدهم (38).

والصحيفة جاءت في هذه المرحلة المبكرة كإطار قانوني وحقوقى لتضيفي على المجتمع الجديد نوعاً من الاستقرار السياسي والاجتماعي؛ ليتوجه الرسول - صلى الله عليه وسلم - لبناء الدولة وتقوية هيكلها الإدارية وأذرعها الاقتصادية وخطاباتها السياسية؛ لتيسير نشر الدعوة في آفاق أكثر رحابة، ثمّ لمزيد من ترسيخ العقيدة في النفوس بعد فترة غير يسيرة من الصراعات مع دوائر الكفر التي كانت تتربص بالجماعة المسلمة والحركة النبوية الجديدة الطموحة لإرساء فلسفة جديدة عن الحياة والكون والإنسان.

ومن خلال ما سبق يتبين أن المجتمع السياسي الإسلامي المتنوع في الدولة الإسلامية يمكن أن يتكون من نسيج فكري وعقدي ولغوي...متنوع:

1- مسلمون يشكلون الغالبية، وهم عصب الأمة (بالمعنى العقدي والديني)، في نسيج الدولة السياسي والتنظيمي.

2- يهود، نصارى، مجوس أو غيرهم... ينتمون في الأساس إلى الأرض التي تقرر إنشاء الدولة عليها (المدينة).

من خلال هذه الوقفات السريعة يظهر أن الصحيفة كانت إعلاناً عن قيام أول دولة قانونية في الأرض نظم بها الرسول - صلى الله عليه وسلم - جميع شؤونها ورسم سياستها الداخلية والخارجية بصفته (الرئيس) الأعلى للدولة الناشئة، إنه دستور فريد لم تحلم به البشرية في عمرها الطويل إلى يومنا هذا؛ حيث تضمن الكثير من القواعد والمبادئ الأساسية التي ماتزال البشرية تحوم حولها مثل: إباحة الحريات، العقيدة والإقامة والتنقل ومزاولة الحرف دون تقييد مادامت هذه الحريات لا تضر مصلحة المجموع، وتراعي المبادئ الأخلاقية في السلوك الفردي وفي العلاقات الاجتماعية، والصحيفة -بذلك- أسست لوحدة الشعور بالجماعة الإنسانية وحميمية العلاقات فيما بين أفرادها(39).

من واجبات الدولة الإسلامية تجاه الدول (الأخرى):

إن الواجبات المطلوبة من الدولة الإسلامية هي الحقوق التي تنالها الدولة غير المسلمة منها، وتتلخص في عدة أمور:

**الأول: واجب مراعاة دعائم العلاقات الإنسانية المستمدة من القرآن والسنة:** ويرتكز على: مبدأ التعاون الإنساني، ومبدأ الكرامة الإنسانية، ومبدأ التسامح غير الذليل، ومبدأ العدالة الإنسانية في حال السلم والحرب، ومبدأ المعاملة بالمثل، ومبدأ المودة والبر الإنساني.

**الثاني: واجب الوفاء بالعهد.**

**الثالث: واجب احترام العرف الصحيح في نطاق العلاقات الدولية:** إننا بهذا نكون قد قاربنا إشكالية (الآخر) في القرآن الكريم والسنة النبوية العطرة والتجربة الإسلامية التاريخية بكثير من الاختصار غير المخل، ووصلنا إلى قناعة أن الإسلام هو المنهج الوحيد الذي يسمح بقيام مجتمع عالمي لا عزلة فيه بين المسلمين وأصحاب الديانات الكتابية، ولا حواجز بين أصحاب العقائد المختلفة التي يمكن أن تظلمها راية الإسلام. وبما أن (الآخر) المقصود ببحثنا هذا هو (الغرب)، فإننا سنحاول في المحور الموالي مقارنة (ماهية الغرب) في خطوة مدخلية نظرية رئيسة أخرى لولوج جوهر هذا البحث بحول الله تعالى.

**المدخل النظري الثالث: في التمييز بين التغريب والاستغراب:**

**في اللغة:** غ-ر-ب: الغربة والاعتراب، تقول تغرب واغترب، فهو غريب... واغترب فلان إذا تزوج إلى غير أقاربه... والتغريب النفي عن البلد، وأغرب: جاء بشيء غريب، وأغرب أيضا: صار غريبا... وغرب: بَعْدَ يقال: أغرب أي تباعد(40). وغرب القوم: ذهبوا في المغرب، وأغربوا: أتوا الغرب، وتغرب: أتى من قبل الغرب.. والغربة والغرب: النزوح عن الموطن والاعتراب(41). وفي الحديث: إن فيكم مُغْرِبِينَ -بكسر الراء- قيل: ما مغربون؟ قال: الذين يشترك فيهم الجن، سموا مغربين: لأنه دخل فيهم عرق غريب، وتندرج عملية (التغريب) في هذا السياق.

**في الاصطلاح:** (الاستغراب) مأخوذة من (الغرب) أي التطلع نحو الغرب لغاية ما؛ أي طلب الغرب.

وإذا كان معنى: استشرق: طلب علوم الشرق ولغاتهم، وهذا المعنى من المولدات اللغوية العصرية(42)، وإذا كان الاستشراق اليوم دراسة الغربيين لتاريخ الشرق وأمه ولغاته وآدابه وعلومه وعاداته ومعتقداته وأساطيره(43)، إذا كان الأمر كذلك، فإن الاستغراب هو طلب علوم الغرب ولغاته، وهو دراسة الشرقيين لتاريخ الغرب وأمه ولغاته وآدابه وعلومه وعاداته ومعتقداته وأساطيره، وهو كذلك من المولدات العصرية. فلا بد -إذن- من التفريق في المصطلح بين الاستغراب والتغريب؛ إذ إن الاستغراب هو دراسات علمية وفكرية وثقافية للغرب، أما التغريب فإنما هو تقمص الفكر الغربي وثقافته وآدابه على حساب الفكر الإسلامي والثقافة الإسلامية والعربية، وما نتج عنها من آداب وفنون واجتماع واقتصاد وسياسة(44).

فالاستغراب يمكن تعريفه إذن باختصار بأنه الاهتمام بدراسة الغرب من جميع النواحي العقدية، والتشريعية، والتاريخية، والجغرافية، والاقتصادية، والسياسية، والثقافية... إلخ. وهذا المجال لم يصبح بعدُ علماً مستقلاً؛ ولكن لا بد أن نصل يوماً إلى المستوى الذي تنشأ فيه لدينا أقسام علمية تدرس الغرب دراسة علمية ميدانية تخصصية في المجالات العقدية والفكرية والتاريخية والاقتصادية والسياسية(45).

### المدخل النظري الرابع: لماذا فقه الاستغراب؟

**الفقه:** العلم بالشيء والفهم له(46). والفقه: فهم الشيء، والفقه هو الفهم لما ظهر أو خفي، قولاً كان أو غير قول، ومن ذلك قوله -سبحانه وتعالى-: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيراً مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفاً وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾(47)، ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَأَنْتُمْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾(48)، وقال القرافي في شرح



تنقيح الفصول: وقال الشيخ أبو إسحاق الشيرازي: الفقه في اللغة: إدراك الأشياء الخفية.

وبإجمال: الفقه هو الفهم الدقيق والعميق للأشياء.

إذن: إذا كان الفقه هو التوصل إلى علم غائب بعلم شاهد -وهو أخص من العلم- فإنني أقترح مفهوم الفقه بدل مفهوم العلم، ليصاحب مفهوم الاستغراب في هذا البحث.

فلماذا فقه الاستغراب؟

من المسائل الشائكة في عالم الأفكار في العالم الإسلامي كيفية التعرف على الغرب ومعرفة أنساقه الفكرية وتجربته الحضارية وخصائصه التي تميزه عن غيره من الكيانات الحضارية. ولذلك تواجهنا مجموعة من الأسئلة التي تحتاج إلى إجابات علمية دقيقة تسهم في فهم الغرب، وتوفير آليات منهجية للتعامل معه.

وهنا يُثار تساؤل عن كيفية ضبط العلاقة مع الغرب؛ إذ إن الإشعاع العالمي الشامل الذي تتمتع به ثقافة الغرب، هو الذي جعلنا في موقف ينبغي أن نحدد الصلة به، وخاصة أن ما يفيض علينا وعلى غيرنا من الأمم والشعوب من إنجازاته الحضارية ومن فوضاه الحالية جعل منه مشكلة عالمية، ينبغي أن نحللها وأن نتفهمها في صلاتها بالعالم كله وبالعالم الإسلامي بوجه خاص. إننا نتوخى في مقاربتنا هذه إبراز الاستعدادات الجيوسياسية والاقتصادية والثقافية العامة التي مكنت النظام الغربي من أن يبلور بواسطتها صورة مشوهة للآخر لتأكيد ذاته ثمّ تبيان محاولته -ليستقيم ذلك- رسم (مصير متعال) له ليجعل من نفسه محورا؛ بل مرجعا تاريخيا عالميا وحيدا في معالجة قضايا مجتمعات ما وراء البحار، وذلك من خلال إنشاء منظومات فكرية متوخيا من ورائها إجماعا نسبيا على رسالته التبشيرية (التحضيرية) بين مواطنيه لكي يتسنى له تصديرها من خلال إغواء وتنشئة نخب في المجتمعات المفتوحة لتكون معابر لبسط سيطرته وترسيخها في جسم هذه

المجتمعات، ولاشك في أن هذا المسار قد تطلب استخدام مفاهيم العقلنة لإضفاء المشروعية على فتوحاته عبر تمثيل المجتمعات الخارجة عن حدوده على شكل (زوائد عائمة) من مخلفات تاريخية متدنية محكومة آجلاً أو عاجلاً بالانقراض والفناء(49).

كما أصدر حسن حنفي كتاباً ضخماً بعنوان: مقدمة في علم الاستغراب، تناول فيه أهمية دراسة الغرب، فأوضح أن مهمة علم (الاستغراب) هي فك عقدة النقص التاريخية في علاقة الأنا بالآخر، والقضاء على مركب العظمة لدى الآخر بتحويله من ذات دارس إلى موضوع مدروس، والقضاء على مركب النقص لدى الأنا، بتحويله من موضوع مدروس إلى ذات دارس، مهمته القضاء على الإحساس بالنقص أمام الغرب لغة وثقافة وعلماً ومذاهب ونظريات وآراء(50)، واستكمال حركة التحرر العربي والإسلامي، ولشعوب العالم الثالث على مستوى التحرر الثقافي والحضاري، تكملة للتحرر السياسي والاقتصادي، وتحويل الغرب من كونه مصدراً للعلم كي يصبح موضوعاً للعلم. ومن ثمَّ يمكن القضاء على ظاهرة (التغريب) في حياة العرب المعاصرة والانبهار بالغرب كنموذج وحيد وأبدي لتقدم الشرق حتى تتعدد النماذج، وحماية ثقافة الأمة من شقها إلى نصفين: علمانية وسلفية، وتجاوز رد الفعل إلى الدراسة العلمية الموضوعية. كما يهدف إلى رد الثقافة الغربية إلى حدودها الطبيعية، وإثبات تاريخيتها، مصادرها ومسارها، بداية وذروة ونهاية، ماضيها وحاضرها ومستقبلها. وقد ينشأ حوار خصب للحضارات يقوم على تعدد المسارات الحضارية والالتقاء بينها دون حضارة مركزية كبرى لديها عقدة عظيمة، وحضارات صغرى في الأطراف لديها عقدة نقص. فلا يوجد تلميذ أبدي أو معلم أبدي، ولا يكفي أدب الرحلات بين الشرق والغرب، أو الخطاب السياسي الشائع الذي يعبر عن موازين القوى. حينئذ يمكن التحول من صدام الحضارات إلى حوار الثقافات من أجل الإثراء المتبادل، وإذا كان الاستشراق يعبر عن ذروة الحضارة الغربية -وهي

الآن في نهايتها- فإن الاستغراب قد يعبر عن دورة جديدة للحضارة الإسلامية، وهي في بدايتها(51).

وأشار حنفي في مواضع أخرى إلى مهمات أخرى لعلم (الاستغراب)، ومنها أنه يسعى إلى القضاء على (المركزية الأوروبية (Eurocentrism Eurocentricity)، وبيان كيف أخذ الوعي الأوروبي مركز الصدارة عبر التاريخ الحديث داخل بيئته الحضارية الخاصة... مهمة هذا العلم الجديد ردّ ثقافة الغرب إلى حدودها الطبيعية بعد أن انتشرت خارج حدودها إبان عنفوانه الاستعماري، من خلال سيطرته على أجهزة الإعلام، وهيمنته على وكالات الأنباء ودور النشر الكبرى ومراكز الأبحاث العملية والاستخبارات(52)، ويذهب حسن حنفي إلى أن الاستغراب هو الوجه الآخر والمقابل والنقيض من (الاستشراق). فإذا كان الاستشراق هو رؤية الأنا (الشرق) من خلال الآخر (الغرب)، فإن (علم الاستغراب) يهدف إذن إلى فك العقدة التاريخية المزدوجة بين (الأنا) و(الآخر)... والقضاء على مركب العظمة لدى (الآخر) الغربي بتحويله من ذات دارس، إلى موضوع مدروس، والقضاء على مركب النقص لدى الأنا بتحويله من موضوع مدروس إلى ذات دارس مهمته القضاء على الإحساس بالنقص أمام الغرب لغة وثقافة وعلم(53).

ويقدم كتاب مقدمات الاستتباع منهجا جديرا بالاحتذاء في تأسيس (علم الاستغراب) يقام على أصول علمية تتجاوز الدعوات الدعائية، وتتعداه إلى أطر فكرية رصينة قادرة على استيعاب الفكر الغربي، متوخيا قيم العدل ومبتغيا الحقيقة ومدركا أن شأن القوم/الغرب ليس مدعاة للظلم، ومؤمنا أن الوصول إلى الحقيقة أعظم من الانتصار على الخصم، (حتى) لا نكرر منهج الغرب في التعامل مع الشرق، ولكن نؤسس لفقه استغراب يعتمد على القيم الحاكمة من توحيد وعمران وتركية، ويلتزم القيم والمثل العليا للوجود البشري من عدل وصدق وأمانة وحب حقيقة وسعي للوصول إلى بعض نورها لتحقيق غاية الوجود الإنساني في

التعارف والاستفادة والتلاحح بعد الإقرار بأننا مختلفون ولذلك خُلقنا(54).

إن الدعوة إلى قيام علم الاستغراب يرجى ألا تكون مجرد رد فعل لظاهرة الاستشراق التي تكونت منذ أكثر من سبعمائة سنة على أقلّ تقدير،.. وبالتالي يعني ذلك فهم الغرب ومنطلقاته في حملاته المتكررة على الشرق، ليس على مستوى الحروب فحسب؛ ولكن على مستويات أخرى ثقافية وسياسية واقتصادية(55).

وأنا حين أستدعي مصطلح فقه الاستغراب لا أعرفه فقط أو أضع له حدودا أو رسوما -كما يعبر الأقدمون- بل لمحاولة معالجة حقل معرفي يتصل بشكل أو بآخر بهذه المفاهيم والمصطلحات التي تستمد حضورها من (سلطة المعرفة وجبروتها)، معالجة حقل معرفي يبحث في سر تحول الغرب إلى مركز يهيمن على جميع الأطراف عبر علومه وقواعده الفلسفية ومطامعه وطموحاته كأسلحة فعالة وقوية ممهدة لفرض واستمرار الهيمنة على الآخر تكريسا لمركزيته و(استتباع) أطرافه بعد قهر ثقافتهم وتهميشها وتقديم بدائل تنميطية تارة باسم (التثاقف والمثاقفة)، وأخرى باسم (العقلنة)، وأخرى باسم (الحرية والديموقراطية)، و... كلّ ذلك من أجل تمرير شبكة واسعة وكبيرة بديلة من المعارف والمعطيات التاريخية والجغرافية والجيوسياسية والأيدولوجية تطمس ثقافات الآخرين، وتبرز مركزية الغرب وتبرز معه تسميات يختارها المركز من قبيل: الشرق الأوسط والأدنى والأقصى، والعالم الثالث و... وكل ذلك توخيا لعزل الأطراف عن مواقع التأثير والاستفراد بالعالم وتنميته وإبعاده عن كلّ ما يمكن أن ينبه إلى حقيقة هويته، وكل ما يحول دون جعله مستعدا للتتكر لذاته الثقافية والدينية والاجتماعية؛ حتى يسهل استبدالها بطريق التقليد والتبعية والاستتباع (بثقافة المركز).

لقد كانت ممارسة السيطرة على الآخرين من قبل مركز أو بلد مندفع نحو السيطرة تعتمد أولاً وأخيراً على القوة العسكرية، وحتى العالميتان الهلينية والرومانية قد فرضتا سيطرتهما بتلك الوسائل العسكرية وحدها، وما عرفت البشرية قبل الحضارة الأوروبية المعاصرة -التي آلت إلى حضارة غربية ثمَّ عالمية- أية حضارة أسست وبنيت ووضعت معارف أعطتها صفة (العلموية) و(العالمية) لتوظيفها في الهيمنة على الآخرين، ثمَّ لتحويلها بعد إحكام الهيمنة والسيطرة إلى جزء من ثقافة ذلك الذي تم (استتباعه) أو (استتباعه) من شعوب الأرض لئلا يكتشف حجم الاستلاب والخديعة التي تعرض لها(56).

فإذا ما أدرك العالم الإسلامي أن الظاهرة الحضارية الغربية مسألة نسبية، فسيكون من السهل عليه أن يعرف أوجه النقص فيها، كما سيعرف عظمتها الحقيقية، وبهذا تصبح الصلات مع العالم الغربي أكثر خصوبة، ويسمح ذلك للنخبة المسلمة أن تمتلك نموذجها الخاص، تنسج عليه فكرها ونشاطها، فالأمر يتعلق بكيفية تنظيم العلاقة، وعدم الوقوع في الاضطراب كلما تعلق الأمر بالغرب.

فالعالم الإسلامي منذ بداية الجهود التجديدية الحديثة يضطرب -كلما تعلق الأمر بالغرب- غير أن الغرب لم يعد بذلك البريق الذي كان عليه منذ قرن تقريباً، ولم يعد له ما كان يتمتع به من تأثير ساحر، فالعالم الغربي صار حافلاً بالفوضى، ولم يعد المسلم الباحث عن تنظيم نفسه وإعادة بناء حضارته الإسلامية يجد في الغرب نموذجاً يحتذيه، بقدر ما يجد فيه نتائج تجربة هائلة ذات قيمة لا تقدر، على الرغم ممَّا تحتوي من أخطاء.

فالغرب تجربة حضارية تُعدّ درساً خطيراً ومهماً لفهم مصائر الشعوب والحضارات، فهي تجربة مفيدة لإعادة دراسة حركة البناء الحضاري، وحركة التاريخ، ولبناء الفكر الإسلامي على أسسه الأصيلة، وتحقيق الوعي السنني، الذي ينسجم مع البعد الكوني لحركة

التاريخ، ذلك البعد الذي يسبغ على حركة انتقال الحضارة قانونًا أزليًا أشار إليه القرآن في قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ (57).

فالتأمل في هذه التجربة التي صادفت أعظم ما تصادفه عبقرية الإنسان من نجاح، وأخطر ما باءت به من إخفاق، وإدراك الأحداث من الوجهين كليهما، ضرورة ملحة للعالم الإسلامي في وقفته الحالية؛ حتى يفهم مشكلاته فهمًا واقعيًا، يقوّم أسباب نهضته كما يقوّم أسباب فوضاه وتخلفه تقويمًا موضوعيًا. وحتى تُنظّم علاقاته مع هذه التجربة، ويُستفاد من هذه التجربة البشرية، ويُدرك مغزى التاريخ، لا بد من فهم هذا الغرب في عمقه، وتحديد خصائصه، ومعرفة ما يتميز به من إيجابيات وسلبيات، حتى لا تكون معرفتنا به سطحية مبتسرة، وأفكارنا عنه عامة، وغير نابعة من اطلاع متأمل، وبالتالي يكون وعينا به مشوهًا أوجزيًا أوشقيا. ولقد أضع المسلمون كثيراً من الوقت منبهرين بما حققه الغرب (58)، دون أن يتأملوا ويدركوا سر حركة التاريخ في الغرب، فنرى كثيراً من الباحثين والمفكرين المسلمين بمختلف انتماءاتهم يجهلون حقيقة الحياة الغربية والحضارة الغربية بالرغم من أنهم يعرفونها نظريًا، كما أنهم ما زالوا يجهلون تاريخ حضارتها، وأنه بدون معرفة حركة تاريخ هذه الحضارة والمنطق الداخلي الذي يحكمها، فإننا لن ندرك سر قوتها ولا مكامن ضعفها، ولن نعرف كيف تكوّنت، وكيف أنها في طريق التحلّل والزوال لما اشتملت عليه من ألوان التناقض، وضروب التعارض مع القوانين الإنسانية.

إن تحديد الصلة العميقة بالغرب وبغيره من الكيانات الحضارية يتطلب إدراك نسبية الظواهر الغربية، ومعرفة أوجه النقص فيها وأوجه العظمة الحقيقية، وتحديد ما يمكن أن نسهم به في ترشيد الحضارة الإنسانية وهدايتها، وهذا في حد ذاته ينضج ثقافتنا ويعطيها توجّهًا عالميًا، فمن المفيد قطعًا أن ننظر إلى حركة التاريخ والواقع من زاوية عالمية؛ لنكتسب بذلك وعياً عالمياً، فإذا أدركنا مشكلاتنا في هذا المستوى، فإننا سندرك -لا محالة- حقيقة الدور الذي يُناط بنا في

حضارة القرن الواحد والعشرين. لذلك فالتعرف على الحضارة الغربية تكليف فكري وضرورة تاريخية، بعيدا عن اللجوء إلى أسلوب القوة الذي لا يكون إلا في مواجهة الغزو العسكري وردع المؤامرات السياسية ومخاطرها، أما المواجهة الفكرية والثقافية فلا تستخدم فيها القوات العسكرية؛ لأن اللجوء إلى القوة يزيد من اضطراب الفكر المخالف، فلا بد -إذن- من اللجوء إلى المنطق الواعي في مواجهة الفكر المنافس، لا بد لدفع الخطر المحدق من اقتراح منطق أقوى وفكر أشمل وأكثر جاذبية، وما لم تكن مجهزة بمثل هذا الفكر والمنطق، فعلينا عقد العزم على تحصيله قبل أي شيء آخر، والإسلام يمتلك هذا الفكر والمنطق(59).

### في منظور فقه الاستغراب والاستغراب المقلوب (التغريب):

إننا في هذا المقام لا نسعى إلى الإسهام في بناء منظور ومنهجية نهائية للتعامل مع الآخر الغربي؛ بل نكتفي بالإشارة إلى أنه يجب بناء منهجية علمية معاصرة ومنفتحة للتعامل مع الفكر الغربي بكلّ صورته ومستوياته، منهجية تمثل حلقة أساسية في بناء فقه الاستغراب على دعائم أهمها:

- 1- بناء منهجية معاصرة وفعالة للتعامل مع القرآن الكريم والسنة النبوية.
  - 2- بناء منهجية جديدة للتعامل مع الفكر الإسلامي والفكر الغربي على السواء.
  - 3- بناء النظام المعرفي الإسلامي على أسس المنهجية والمعرفة.
- وقد بدأ هذا المشروع أحد المسلمين الخبراء بالغرب المرحوم إسماعيل الفاروقي ببعض المقالات منها (نحن والغرب) و(صياغة العلوم الاجتماعية).
- 4- صياغة خطاب عالمي كوني قيم (من الدين القيم).

ولكي يتم بناء منهجية علمية في إطار فقه الاستغراب لابد من التركيز على رصد البواكير الأولى لاستراتيجية إلحاق العالم الشرقي بالعالم الغربي ودور المؤسسات العلمية في ذلك، وكيف اعتمدت على تغيير أجهزة الوعي عند الإنسان العربي المسلم؛ لضمان تحقيق عملية (استتباع) منهجية دائمة تغذيها دوافع التابع ورغباته أكثر من محفزات المتبوع ومغرياته(60).

### ومن مظاهر هذه المنهجية:

- تحليل الأبنية الاقتصادية والتاريخية والاجتماعية والسياسية والدينية والفكرية التي ظهرت فيها بواكير ومقومات الاستتباع الغربي للشرق.

- الرجوع إلى الأصول والمصادر الأصلية للفكر الغربي.

وقد ظهرت الدعوة إلى (علم الاستغراب) -بتعبير حسن حنفي- Occidentalisation في مواجهة التغريب Westernisation الذي امتد ليس فقط إلى الحياة الثقافية وتصوراتنا للعالم وهدد استقلالنا الحضاري؛ بل امتد إلى أساليب الحياة اليومية ونقاء اللغة ومظاهر الحياة العامة وفن العمارة..(61)، فعندما تثير صدمة المواجهة مع الحضارة الغربية ردود أفعال مختلفة عند الغرباء عنها، منهم من يصاب بحالة من الانبهار تفقده نفسه، حتى إذا بدأ البحث عنها لم يجدها إلا في الذوبان الكامل في تلك الحضارة، وهؤلاء هم دعاة التغريب(62)، فالتغريب إذن نوع من الاغتراب Alienation بالمعنى الاشتقاقي للفظ، أي تحول (الأنا) إلى (آخر)(63).

ولذلك تأتي أهمية دراسة الغرب لمواجهة حالة الانبهار التي أصابت كثيراً من أبناء الأمة الإسلامية، فيرى البعض أن النظام السياسي الأمثل هو الذي أوجدته الحضارة الغربية، وقد دعا مطبقاني إلى هذه الدراسة قائلاً: (انظر كيف يدرسونا، وكم يبذلون من الجهود والأموال لمعرفة ما يدور في بلادنا، وهل نحن ندرسهم بالمقابل؟ بل قبل ذلك هل عرفنا



أنفسنا كما يعرفون عنّا؟ إن هذا الأمر يحتاج من مفكرينا و علمائنا وقفة متأنية(64).

وكان أن فتح الباب واسعا أمام (التغريب)/الاستغراب المقلوب؛ ليحتل المساحة الأكبر من عقول المسلمين، كما احتلت جيوش الغزو بلادهم، وسيطرت شركاته على ما فيها من موارد وخيرات وأسواق، فحين زحفت البلاد الغربية نحو البلاد الإسلامية انهزم المسلمون أمام سيوفها أولاً، ثمّ استسلموا بعد ذلك لثقافتها وحضارتها وفلسفتها، فما لم يستطع سيفها إنجازَه، أكملته فلسفتها، ولم تجرّ على العالم الإسلامي سيطرتها السياسية ما جرّه عليه غزوها الحضاري والفكري من البليات والمصائب، فالسيطرة السياسية كانت تتحكم في الأجساد فقط، أما السيطرة الحضارية والفكرية فقد تحكمت في العقول والأذهان(65).

ولقد كان من أوائل من استعمل مصطلح (الاستغراب) بالمعنى الأول -دراسة الغرب-(66) أنور عبد الملك في مجموعة من كتاباته، ولقد أصبح على علماء الشرق الذين يدرسون المجتمعات الغربية أو المذاهب العلمية القائمة أن يتقنوا الإنجليزية والفرنسية والروسية والألمانية والإيطالية والإسبانية، أليس على علماء الشرق أن يتكلفوا تكاليف باهضة للاطلاع على مختلف المعارف في الغرب، وفي أوروبا وفي أمريكا الشمالية خاصة؟ وهل سيكون علينا من أجل ذلك أن نؤسس مؤتمرات للعلوم الإنسانية في أوروبا وفي أمريكا الشمالية، وأن نطلق على المختصين الذين سيهتمون بهذه العلوم اسما جديدا هو: المستغربون؟(67).

## خاتمة:

وبعد هذا، لعل سائلاً يعيد السؤال: لماذا ندرس الغرب؟ وكيف لنا أن ندرس هذا العالم الذي سبقنا بمراحل عديدة أو بعدة قرون؟ الأمر ليس صعباً أو مستحيلاً؛ فحين نريد دراسة الغرب ومؤسساته وهيئاته:

- فلأننا نحن في حاجة للأخذ بأسباب القوة المادية التي وصلوا إليها،  
أليس في كتابنا الكريم ما يؤكد هذا؟! ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ  
وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ (68).

- ولأننا حين ندرس الغرب فليس لدينا تطلعات استعمارية، فما كان  
المسلمون يوماً استعماريين؛ ولكننا نريد أن نحمي مصالحنا ونفهم  
طريقة عمل الشركات المتعددة الجنسيات - في أبعادها الفكرية والثقافية  
والاقتصادية والحضارية- التي ابتدعها الغرب وأصبحت أقوى نفوذاً  
من كثير من الحكومات.

- ولأن هذه الأمة هي أمة الدعوة والشهادة؛ فإن كان الأنبياء قبل سيدنا  
مُحَمَّد - صلى الله عليه وسلم - كانوا يُكَلَّفون بدعوة أقوامهم، فإن الدعوة  
الإسلامية موجهة إلى العالم أجمع، وقد كَلَّف المسلمون جميعاً بحملها،  
ونحن أمة الشهادة، فكيف لنا أن نشهد على الناس دون أن نعرفهم  
المعرفة الحقيقية؟!

لذلك لن يكون فقه الاستغراب لتشويه صورة الغرب في نظر العالم؛  
ذلك أننا ننطلق من قوله تعالى: ﴿ولا يجرمكم شأن قوم على ألا تعدلوا  
اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله﴾، ولنا أسوة في ذلك بما ورد عن  
عمرو بن العاص في وصف الروم بقوله: "إنَّ فيهم لخصالاً أربعا: إنهم  
لأحلم الناس عند فتنة، وأسرعهم إفاقة بعد مصيبة، وأوشكهم كرة بعد  
فرّة، وخيرهم لمسكين ویتيم، وخامسة حسنة جميلة: وأمنعهم من ظلم  
الملوك".

إن قراءة الغرب قراءة واعية (فقه الاستغراب) أصبحت ضرورة  
تمليها تحديات الزمن الحضاري الحالي، وقبل ذلك تمليتها الضرورة  
الشرعية التي نستشفها من خلال مجموعة من آي القرآن الحاضرة على  
التفكر والتأمل في سير الأمم للمعرفة والاعتبار، ولا تتحقق هذه القراءة  
الواعية إلا إذا امتلنا ناصية العلمية والمنهجية التي تؤكد على  
المنطلقات الواضحة والأهداف الناصعة والوسائل الناجعة.

وقد حاولت إرسال برقيات سريعة في الموضوع، ولم أذهب مذهب التنظير والتفعيد، الذي يحتاج جهودا راسخة في العلم -أفرادا ومؤسسات- كما يحتاج إلى حنكة فكرية ودربة ميدانية تعطي للموضوع عمقا أكثر، ودفعة أكبر في مجال البحث المعرفي الإسلامي المعاصر والمستقبلي.

وحسبي أن أكون قد أثرت الموضوع، وفتحت نوافذ تهب من خلالها خيرات بحوث ودراسات قادمة يقوم بها غيري من الأساتذة والمفكرين؛ حتى تستوي دعوة فقه الاستغراب على سوقها، وما ذلك على أبناء هذه الأمة بعزيز.

\*\*\*\*\*

### الحواشي:

- (\* أكاديمي من المغرب.
- 1- سورة الحجرات, آية 13.
- 2- نحو شهود حضاري للمسألة المصطلحية: الشاهد البوشيخي، سلسلة دراسات مصطلحية 3، ط/2002م، ص8، وما بعدها.
- 3- تاج العروس، 9/30.
- 4- مختار الصحاح، 1/4.
- 5- التعاريف، 1/33.
- 6- لسان العرب، ج5/37.
- 7- (الأخر) في القرآن: عبد الحق الزموري، رسالة الجهاد، ع 70، ص122.
- 8- الحرية في القرآن: السيد مُحَمَّد باقر الصدر، سلسلة كتاب اخترنا لك دار الزهراء بيروت 1975م، ص47.

9- الإسلام والآخر: الأسس النظرية في النص القرآني: حسن السعيد، مجلة التوحيد، ع 110، تصدر عن مؤسسة الفكر الإسلامي، إيران.

10- سورة الكهف، آية 29.

11- سورة العلق، آية 10.

12- سورة البقرة، آية 256.

13- الإسلام والسياسة: دور الحركة الإسلامية في صوغ المجال السياسي، عبد الإله بلقزيز، بيروت، المركز الثقافي العربي، 2001م، ص 87.

14- الجماعة والمجتمع والسلطة، رضوان السيد، بيروت، دار الكتاب العربي، 1997م، ص 359 وما بعدها.

15- سورة النجم، آية 45.

16- سورة الروم، آية 22.

17- سورة التغابن، آية 2.

18- سورة البقرة، آية 251.

19- سورة النحل، آية 93.

20- سورة المائدة، آية 82.

21- سورة البقرة، آية 253.

22- الآخر في الثقافة العربية الإسلامية: شمس الدين كيلاني، م.س.

23- الآخر في القرآن: نفي أم تعايش؛ عبد الحق الزموري، رسالة الجهاد، ع 70، ص 121.

24- الآخر في القرآن، ص 122.

- 25- الإسلام والآخر، التوحيد ع110، ص29.
- 26- الإسلام والآخر، ص30.
- 27- سورة التوبة من الآية 100 إلى 106.
- 28- (الآخر) في القرآن، ص123.
- 29- سورة آل عمران، آية 13.
- 30- (الآخر) في القرآن: 124.
- 31- سورة المائدة، آية 82.
- 32- سماحة الإسلام: مُحمَّد عمارة، مجلة التسامح العمانية، ع1، 2003م، ص28.
- 33- سماحة الإسلام، ص29-30 بتصرف.
- 34- سورة المائدة، آية 106.
- 35- الإسلام والآخر، ص40.
- 36- روح الدين الإسلامي: عبد الفتاح طبارة، ص295.
- 37- الإسلام والآخر في السنة المطهرة والتأصيل الفقهي، حسن السعيد، التوحيد ع111، ص30.
- 38- نظام الحكم والإدارة في الإسلام، مُحمَّد مهدي شمس الدين ط2، ص532.
- 39- الصحيفة: أنموذج من التسامح في الإسلام، إبراهيم العجلوني، التسامح، ع1، ص50-51.
- 40- مختار الصحاح 1/197.
- 41- لسان العرب = مادة غرب.

42- معجم متن اللغة: الشيخ أحمد رضا ج3, ص311، دار ومكتبة الحياة، بيروت 1988م، نقلا عن علي يوسف نور الدين: الاستشراق والاستغراب قراءة نقدية، مجلة شؤون الأوسط، ع108، ص99.

43- تاريخ الأدب العربي: أحمد حسن الزيات، دار النهضة للطباعة والنشر، ط25 القاهرة، ص512 نقلا عن شؤون الأوسط، ع108، ص99.

44- الشرق والغرب: منطلقات العلاقات ومحدداتها: علي بن إبراهيم الحمد ط2, 2005م، المركز الثقافي العربي، البيضاء، ص106.

45- متى ينشأ علم الاستغراب؟ مازن صلاح مطبقاني، وحدة دراسات العالم الغربي بمركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، [www.madinacenter.com](http://www.madinacenter.com)

46- القاموس المحيط، مادة: ف ق هـ.

47- سورة هود، آية 91.

48- سورة الإسراء، آية 44.

49- مقدمات الاستتباع: الشرق موجود بغيره لا بذاته: غريغوار منصور مرشو، ط1, 1996م، منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي، سلسلة إسلامية المعرفة رقم 18، ص16.

50- مقدمة في علم الاستغراب: حسن حنفي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، 1992م، ص24.

51- من الاستشراق إلى الاستغراب: حسن حنفي، مجلة بونة للبحوث والدراسات، الجزائر، عدد3، يونيو 2005م، ص12-13.

52- مقدمة في علم الاستغراب، م س، ص28.

53- مقدمة في علم الاستغراب، م س، ص23.

54- مقدمات الاستتباع: الشرق موجود بغيره لا بذاته، من تصدير طه جابر العلواني، ص12 بتصريف يسير.

55- الشرق والغرب: منطلقات العلاقات ومحدداتها: م س، ص108.

56- مقدمات الاستتباع: الشرق موجود بغيره لا بذاته: من تصدير طه جابر العلواني، ص8.

57- سورة آل عمران, آية 140.

58- ويرى حسن حنفي أنه ظهر في العالم العربي من اهتم بدراسة الغرب ولكنه أطلق على هذه الدراسات بالاستغراب (المقلوب) أو التغريب، ويبرر هذه التسمية بسبب ما أدت إليه من نتائج معكوسة؛ إذ (بدلاً من أن يرى المفكر والباحث صورة الآخر في ذهنه رأى صورته في ذهن الآخر، بدل أن يرى الآخر في مرآة الأنا رأى الأنا في مرآة الآخر. ولما كان الآخر متعدد المرايا ظهر الأنا متعدد الأوجه). وضرب حسن حنفي المثال لهذا بكتابات مُحَمَّد عابد الجابري وهشام جعيط، وعبد الله العروي وهشام شرابي وغيرهم, مقدمة في علم الاستغراب، ص55-65.

59- المشهد الثقافي في إيران: مخاوف وآمال: مُحَمَّد خاتمي، دار الجديد بيروت، ط1، 1997م، ص158 بتصريف.

60- مقدمات الاستتباع: الشرق موجود بغيره لا بذاته، من تصدير طه جابر العلواني، ص11-12.

61- مقدمة في علم الاستغراب، م س، ص18.

62- التغريب طوفان من الغرب: أحمد عبد الوهاب، مكتبة التراث الإسلامي، ط1، ص15.

63- مقدمة في علم الاستغراب، ص20.

64- الغرب في مواجهة الإسلام: مازن مطبقاني، المدينة المنورة: مكتبة ابن القيم، 1409، ص78، كما ظهرت لاحقاً طبعة ثانية من هذا الكتاب عن مكتب الندوة العالمية للشباب الإسلامي بالمدينة المنورة.

65- الطريق إلى وحدة الأمة الإسلامية: أبو الأعلى المودودي، ص21 نقلا عن مُحَمَّد عمارة: أبو الأعلى المودودي والصحة الإسلامية، ص146.

66- نحن والغرب: جدل الصراع والتعايش، عبد الجبار الرفاعي، سلسلة قضايا إسلامية معاصرة، دار الهادي، ط1، 2002م، ص92.

67- إشكالية التحيز: رؤية معرفية وقضايا للاجتهد، ج2، ط2، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، سلسلة المنهجية الإسلامية، تحرير: عبد الوهاب المسيري: تحيزات غربية في قضايا نهضتنا الحضارية، بحث مستخلص من أعمال: أنور عبد الملك، إعداد: فؤاد السعيد، ص601.

68- سورة الأنفال، آية 60.